

## «مصير صرصار».. مسرحية تصور عبث الحياة

توفيق الحكيم يتكى على الرمز مستعينا بعالم الصراصير



شاع في الأدب الاعتماد على شخصيات غير إنسانية في السرد، وهو خيار تعددت أسبابه، بيد أن ما قد يُتفق عليه أن ما يُتيحه النمط السردي من ترميز دال وانتقاد لاذع أحياناً هو ما منحه تلك الاستمرارية وذلك الشيوع. وفي مسرحية «مصير صرصار» التي نشرت عام 1966 يُقدّم الأديب المصري الراحل توفيق الحكيم عدداً من مستويات الترميز من خلال الاتكاء على عالم الصراصير.

حنان عقيل  
كاتبة مصرية

لكنه لا يُدرك بعلمه المحدود أن تلك الجدران ليست سوى وهم. يؤسس التوفيق للمنظر المسرحي هنا لفكرة محدودة علم الإنسان وإدراكه، وهي المقاربة التي تستمد مشروعيتها لاحقاً مع تأسيس الحكيم لمملكة الصراصير بتفاصيلها وقضاياها ثم يتأكد بوضوح مع مقاربتة لعالم الصراصير والإنسان.

يأتي التأكيد على محدودية علم الإنسان من خلال إكمال وصف الفضاء المسرحي: «الوقت ليل.. أما في نظر الصراصير فهو نهار، لأن وهج النور عندما يعمي أبصارها ويجعلها تختفي أو تنام». ذلك الوصف الذي يضعنا أمام صورة كهف أفلاطون، فالإنسان في الكهف يقبع في ظلام وفي عمق تلك الظلمة يظن أن ظلال الأشياء هي الحقيقة النهار ويجد في تلك الظلمة راحته لأن وهج النور يعمي بصره.

## شبكة العلاقات

يؤسس الحكيم عبر الفصل الأول

من عمله المسرحي شبكة علاقات تأتي على ثلاثة مستويات: الأول، مستوى العلاقة بين الملك والمملكة (في مملكة الصراصير)، والثاني هو علاقة الملك بمعاونيه (الوزير والكاهن والعالم)، والثالث العلاقة بين الملك بصفته رأسا للسلطة وراعيًا والنمّل بصفته الآخر المعتدي والمهدد.

على المستوى الأول، العلاقة بين الملك والمملكة لا يُمكن أن نتجاهل نظرة

تأملية في معنى الوجود. تعكس المسرحية، ولاسيما في فصلها الأول، نمطاً مُكتسماً بصورة مملكة يرأسها ملك وزوجته بمعاونة وزير وعالم وكاهن، وعبر الحوارات الهزلية تتشكل بنية نقدية لنمط السلطة وإشكالية الحكم والعلاقة مع الآخر.

وفي الآن ذاته يسعى الحكيم عبر عمله المسرحي أن يُسفه بريق السلطة الزائف القائم على إحساس بالتعالي والأهمية في غير محله، ويستشكل قضايا تتعلق بروية الذات في مواجهة الآخر، ومثلت العلاقة بين الدين والعلم والسلطة وعجز هذا الثلاثي عن مواجهة ذلك

الخطر المحيق والتاريخي، فضلاً عن انتقاد السلبية والانهازمية اللتين تجعلان كل واحد ينصرف حيث يحقق مصلحته دون رغبة في تحقيق مصلحة

جماعية أو هدف وطني. تعكس المسرحية في بُعديها السابقين استشكالاً لولم التفوق الزائف على المستوى الفردي أو الجمعي، لكنها أيضاً تمثل رؤية الحكيم المتحفظة إزاء دعاوى حرية المرأة، تلك الإشكالية التي تحضر في أعمال أخرى له تتجسد هنا

في المرأة التي تستلب كيان الرجل وتهدهد باستمرار على المستوى الرمزي الممثل في مملكة الصراصير أو على المستوى الإنساني ممثلاً في العلاقة بين عادل وزوجته سامية.

## المنظر المسرحي

تفتتح المسرحية على وصف للمكان الذي تدور فيه أحداث الفصل الأول: «المكان ساحة رحبة، وهذا بالطبع في نظر الصراصير، أما في الواقع في هذه الساحة ليست سوى بلاط حمام في شقة عادية، وفي صدر هذه الساحة يقوم جدار هائل، ليس سوى الجدار الخارجي لحوض البانيو، والوقت ليل، أما في نظر الصراصير فهو نهار، لأن وهج النور عندما يعمي أبصارها ويجعلها تختفي أو تنام..»

يضعنا الفضاء المسرحي الذي تدور فيه أحداث المسرحية في فصلها الأول أمام وصف موضوعي للمكان من منظور الكائنات الضئيلة «الصراصير»، فهو ساحة رحبة بالنسبة إليها لكنه في الحقيقة ليس كذلك. وفي صدر هذه الساحة جدار هائل في نظرها لكنه في الحقيقة ليس سوى جدار حوض البانيو.

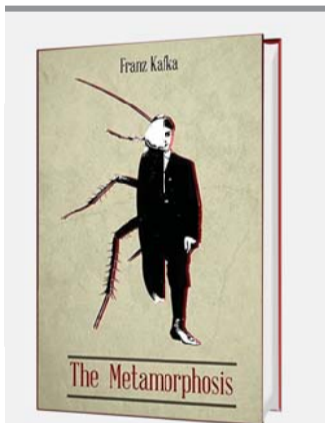
منذ بداية العمل والتأسيس لمنظور الصراصير الضيق في رؤية محيطها تتأسس المقاربة التي يضعها الحكيم أمامها ما بين عالم الصراصير وعالم الإنسان.

إذا كان الفضاء في نظر صرصار رحيباً وواسعاً ويطل على مجهول، فالإنسان ينظر إلى محيطه بالنظرة الضيقة ذاتها، ويظن أن ساحتها أرحب مما هي في الواقع، ويظن الإنسان أنه أمام جدران هائلة تقض مضجعه وتُفسد عليه الاستمتاع بحياته الرحبة

## مسرح الحكيم.. حين يتجلى الواقع من خلال الرموز

الشعور بالضعف يُعزز الحكيم عبر تعجب عادل من خبر ثورة السود على المستعمرين البيض، ويأتي الفعل المسرحي ممثلاً في تخفيض صوت الراديو علامة على صعوبة تصديق فكرة أن يشور الضعيف على القوي، وتعزز الفكرة ذاتها مرة أخرى في اعتبار عادل ذاته «الماخوذ غلاباً».

يشعر عادل بأنه مُستلب أمام زوجته وهو ما يدفعه لأن يسأل عن هويته، التي لم يعد يعرفها بعدما صار مطوّقاً من قبلها، وهنا يُعبر الحكيم عن رؤيته المخوفة والمتشككة في العلاقة مع المرأة التي تسلب الرجل كل شيء في نظره.

حشرة كافكا وصرصار  
الحكيم يتشاركان  
القلق الوجودي والعجز  
الإنساني ذاته

يبدأ عادل في التماهي مع الصرصار وكفاحه المرير بلا طائل للخروج من البانيو، فهو لا يمل من تكرار المحاولات وهنا يأتي توحيد عادل الكامل معه إلى حد التفرغ لمراقبته، تلك الحالة تقترب بدرجة كبيرة من «صرصار» كافكا؛ فإن كان عجز «غريغور سامسا» عن الانسجام مع محيطه الخارجي بكل ما يفرضه من قوانين هو ما جعله يستيقظ ذات صباح ليجد نفسه قد تحول إلى حشرة، فإن «عادل» في «مصير صرصار» يتماهي مع الصرصار لأن لديه عجزاً وضعفاً يتشابه به معه.

يأتي تامل عادل طويلاً للصرصار وهو يكافح من أجل الخروج مراراً وتكراراً رغم أنه ينزلق في كل مرة عند المكان ذاته ليُقدّم صورة شبيهة للشكل المسرحي شخصيتين متعارضتين: سامية وزوجها عادل، ففي مقابل الميل إلى السيطرة والهيمنة ممثلة في «سامية» يأتي عادل خائفاً وضعيفاً. في مقابل السلطة تأتي الاستجابة، وتحمل الأسماء ذاتها دلالة رمزية لواقع الشخصيات؛ فاسم سامية يُحيل إلى السمو والارتفاع. وإزاء كل الهيمنة التي تفرضها سامية على زوجها تتضح وتبرز معالم ضعف شخصيته التي يحاول أن يجد ما يُبررها. يمارس عادل «إسقاطاً نفسياً» على زوجته ليعيد عن ذاته الشعور بالضعف الذي يُسبب له الألم.

## فكرة الكفاح بلا أمل في المسرحية تحيل إلى أسطورة سيزيف

من تصوير اختيار ذلك الملك وهؤلاء المعاونين في مملكة الصراصير. يقول الحكيم في كتابه «عودة الوعي»: «سحرونا ببريق آمال كنا نتطلع إليها من زمن بعيد، وأسكروننا بخمرة مكاسب وأمجاد، فسكرونا حتى غاب عنا الوعي. اعتدنا هذا النوع من الحياة الذي جعلتنا فيه الثورة مجرد أجهزة استقبال»، ذلك النمط من أجهزة الاستقبال هو ذاته نمط الرعية المدان هنا في «مصير صرصار»، فلا يهّم من يعتلي الحكم أو يغادره، هذا منطق الاستقبال السلبي الذي يُقدّم الحوار المسرحي في الجزء الأول نقداً له، وفي الآن ذاته سبباً في تنويج الملك دون إرادة شعبية.

سحرونا ببريق آمال كنا  
نتطلع إليها من زمن بعيد  
وأسكروننا بخمرة مكاسب  
وأمجاد فسكرونا حتى غاب  
عنا الوعي

على سعيد المستوى الثاني من العلاقات؛ علاقة الملك بمعاونيه (الوزير والكاهن والعالم)، تُقدّم الشخصيات بداية على لسان الملك؛ فالكاهن «لا يفهم معنى لكلامه»، والعالم «معلوماته غريبة عن أشياء لا وجود لها إلا في رأسه»، والوزير «بارع في الإتيان بالأخبار المزعجة، وتبين تلك الحوارات تلك النظرة التي تكنها السلطة بنظر الحكيم لكل من رجال العلم والدين، فالضرورة وحدها تقتضي تحمل «سخافتهم».

## العلاقة مع الآخر

تأتي رمزية العلاقة مع النمّل الذي يهدد مملكة الصراصير، مشكلة أزلية وتاريخية بات الملك مُطالباً بحلها لأنه الوحيد الذي أعجب بشاربه وقرر أن يكون ملكاً.

ثمة رمزية كامنة في النمّل هنا بصفته قوى معتدية واستعمارية؛ فمشكلة القوى الاستعمارية تاريخية ومُتكررة، ثم إن جحافل النمّل تهجم منا إن تلج زلة قدم لصرصار، ورغم أزلية المشكلة فإن أحداً لم يُطلب منه مواجهتها، فلم يُعجب أحد بطول شاربه من قبل».

يحيل الحكيم هنا عبر عالمه الرمزي إلى السلوك الناصري المتمثل في تحدي القوى الغربية والاعتداد بمقدرة زائفة للذات على مواجهة ذلك الآخر، فالإعجاب بطول الشارب هنا إشارة لريف الشعور بأهمية الذات لدى الحاكم، الذي عجز ذاته الشعور بالضعف الذي يُسبب له أن يواجه العدوان، فعدوان النمّل في

الحكيم الدونية إزاء المرأة ورأيه الذي أكد عليه عبر أعماله. وترادف زينة المرأة حرص الملكة في مملكة الصراصير، ثم سامية زوجة عادل في الفصل الثاني على زينتتهن تأكيداً على ميلهن الدائم إلى الخداع، ذلك الخداع الذي يقبع الذكر سجيناً ورهيناً له ويقضي حياته في غلالته.

حرص الحكيم على بث رأيه المعادي للمرأة عبر حوارات الانعكاس الكوميدي التي تسعى من خلالها للحفاظ على ترتيبات الواقع والعقود الاجتماعية والافتراضات الثقافية السائدة؛ كما هو في الحوار الذي يدور بين الملك والمملكة حول الفارق بين الذكر والأنثى في مملكة الصراصير التي يرمز من خلالها إلى عالم البشر، والذي يؤكد من خلاله أن التكوين الشكلي والمظهر الخارجي للرجل يقرض عليه ادواراً اجتماعية خارجية «زمانية»، فالشوارب الأطول تحيل إلى البنية العضلية الأقوى في عالم الرجال في مقابل «الشوارب الأقصر» أي البنية العضلية الأضعف، والتي طالما جُدت وحُصرت الأدوار الجنسية وفقاً لها.

عبر هذا الحوار في ذلك العالم الرمزي الذي يبينه الحكيم ثمة سعي لتثبيت ما هو متعارف عليه من بنية ثقافية تُعلم من شأن الذكر وتحط من شأن الأنثى وفقاً لما تلمّيه «الذكورة». وفي إطار الحوار بين الملك والمملكة أيضاً، نجد ذلك الحسّ العدائي الذي يُكنه الحكيم للأنثى مثلما في قول الصرصار الملك: «فحديث الملكة محاولة للإقلال من شأنه أو للسخرية من قيمة الملك، فهي سبب في وهنه وشعوره بالخزي.

يسهم الحوار المتبادل بين الملك والمملكة حول أسباب اعتقاله عرش المملكة في الكشف عن أبعاد شخصية الملك ومؤهلاته وقدراته والسبب الواهن الكامن وراء تنصيبه ملكاً، ثم بعد ذلك طبيعة علاقته بالرعية والمعاونين، فإن كان الحكم قد جاءه جراء سلبية رغبته وعدم اكتراثها بمن يحكمها دون أن يكون له ما يميزه عليها، وإن كان اختياره للمعاونين له فقد جاء بناء على الصدفة والعشوائية.

ويقدر ما يكشف الحوار عن أبعاد شخصية الملك فهو يوجه نقداً لاذعاً وسخرية جلية من عبد الناصر وثورة يوليو 1952 في كتابه «عودة الوعي» وعبر عنها مسرحياً في عدد من الأعمال مثل «السلطان الحائر»، وهو ما يُبين وجه الإسقاط السياسي الذي أرادته الحكيم



توفيق الحكيم يؤكد أنه لا يريد أن يدخل المسرحية في نطاق المأساة أو الملهاة إنما بالنسبة له مجرد مسرحية وكفى

